اكتشاف موقع الزاوية المتوكلية
بظاهر مدينة فاس

د. عبد الهادي التازي

إلى جانب حرصهم على أن يظلوا حاضرين على الصعيد الدولي سواء في الميدان العسكري برًا وبحرًا، أو في الميدان القانوني عندما كانوا يواكبون بل يزاحمون الاجتهاداتِ ذات الصلة بقضايا السلام بين الدول الأوروبية في منطقة البحر المتوسط، أو في الميدان الفكري والإبداع، أو على صعيد عالَم الإسلام عندما كانوا يمدون أيديهم إلى القادة في المشرق من أجل مجتمعٍ قوي متكامل متواصل...

إلى جانب كل ذلك وجدنا بني مَرِين يولون اهتمامهم لتأثيث البلاد بطائفةٍ من المنشآت والمؤسسات الحضارية التي ظل معظمها — لحسن الحظ– قائمًا إلى الآن شاهدًا على ما كانوا يطمحون للوصول إليه في الأمد البعيد.

وسوف لا أتحدث هنا عن رجال دولتهم كلهم، وعما تركه سلاطينهم جميعًا من الآثار، ولكني سأقصر هذا الحديث على مَلِكٍ واحد من أولئك، هو السلطان أبو عنان الذي لم يتجاوز حكمه للمغرب أكثر من تسعة أعوام وتسعة أشهر على ما يذكره ابن الأحمر[1]، وسأقتصر في النهاية على منشأةٍ واحدةٍ

(١) إسماعيل بن الأحمر: روضة النسرين في دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور مؤرخ المملكة، طبعة ثانية ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، المطبعة الملكية– الرباط.

من جميع تلك المنشآت التي شاهدتْها عاصمتهم مدينة فاس، وأعني بها الزاوية المتوكلية المنعوتة بالعظمى، والتي كانت تقع بظاهر المدينة.

لقد خَلَف السلطان أبو عنان والده عام ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م في ظروفٍ قرأ المهتمون بتاريخ المغرب الكبير عن قلقها واضطرابها وتلاحق أحداثها، فلقد كان والده أبو الحسن في مهمته بتونس يحاول استرجاع الوحدة بين أقطار المغرب الثلاثة: الأقصى والأوسط والأدنى، وهناك شاعت وفاته حيث رأينا ولده أبا عنان وخليفتَه بتلمسان يعلن نفسه سلطانًا على البلاد... ولسنا هنا بصدد التحقيق في أمر «تنازل» الوالد لولده اختيارًا أو اضطرارًا، فذلك أمر يهم المشتغلين بالقضيةِ الأزليةِ المتمثلةِ في التنافس على السلطة، ولكن الذي يهمنا هو أن السلطان أبا عنان استقر على كرسي الحكم بصفةٍ نهائيةٍ عام ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م بعد أن شيع جنازة والده من مدينة مراكش إلى مقبرة شالة بضاحية مدينة الرباط حيث كان ابنُ بطوطة ضمن الركب الملكي...

فماذا عن المنشآت المعمارية للسلطان أبي عنان في مختلف جهات المغرب الكبير، وبخاصةٍ بالمغرب الأقصى، وبصفة أخص في **مدينة فاس** التي كان أبو عنان يفضل المقام فيها على سائر قواعد المغرب؟

في جولةٍ سريعة عبر التآليف التي بين أيدينا من التي اهتمت بالسلطان أبي عنان، نرى أن هذا الملك العظيم يقوم بإنشاء عدد من المستشفيات وتعيين الأطباء لمعالجة المرضى[1]، وعدد من المدارس والزوايا على نحو ما نقرؤه عند

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي، المجلد الرابع ص: ٢٠٠، (٣٤٨/ ٤)، تعليق ١١٥، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

ابن جُزَيّ (ت٧٤١هـ(في «تهذيبه»: «أمر السلطان أبو عنان بعمارة الزوايا بجميع بلاده لإطعام الطعام للوارد والصادر، وقد جَعل التصدقَ على المساكين بالطعام يوميًا...» وعلى نحو ما ورد في أرجوزة (رقم الحلل في تاريخ الدول) للسان الدين ابن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦هـ عندما قال:

وخلُص الأمرُ لكفّ فارس باني الزوايا الكُثْرِ والمدارسِ

وإذا كان معنى المدرسة واضحًا بالنسبة إلينا، فإن الزاوية تعني في اصطلاح بني مرين مؤسساتٍ أو مراكزَ اجتماعيةً معدةً لإرفاق الواردين على نحو ما نقلنا عن ابن جُزَيّ.

لقد كان من تلك الزوايا زاوية في سبتة قال عنها الأنصاري في اختصار الأخبار: إنها الزاوية الكبرى خارج باب فاس من سبتة، وأعدها لمن اضطر للمبيت بها من التجار وغيرهم... ملوكية البناء، كثيرة الزخرفة متعددة المساكن... وصومعتها من أبدع الصوامع... وكان منها في سلا زاوية النساك التي توجد خارج باب فاس من سلا، والتي وصفها ابن الخطيب «بالبستان» وقد نقش على بابها الغربي «أمر بهذه الزاوية... أبو عنان... فرغ من بنائها عام سبعة وخمسين وسبعمائة. كما كان مما نقش على الباب: ﴿وَسَارِعُوا إلى مَغْفِرةٍ مِنْ رَبِّكُم...﴾ [آل عمران: ١٣٣]»[1].

ولكن حديثنا هذا سيرتكز على زاويةٍ واحدةٍ من تلك الزوايا وهي

(١) ابن علي الدكالي: الإتحاف الوجيز، تحقيق مصطفى بو شعراء، منشورات الخزانة الصبيحية سلا المغرب ١٤٠٦– ١٩٨٦.

المتوكلية[١]، التي وقع التنويه بعمارتها أول الأمر عام **٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م في رحلة ابن بطوطة** عندما قال عنها في السفر الأول: «لا نظير لها في المعمور في إتقان الوضع وحسن البناء والنقش في الجص، بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله»، ثم عندما نعتها في السفر الأخير بالعظمى، وقال: «إنها تقع خارج فاس، وأبدع زاوية رأيتها في المشرق زاوية سرياقص التي بناها الملك الناصر، وهذه أبدع منها وأشد إحكامًا وإتقانًا»[٢].

ولابد أن نضيف إلى نثر ابن بطوطة نظمًا قاله زميله وناسخ رحلته ابن جُزَيّ أورده المقَّري (ت١٠٤١هـ(في (نفح الطيب) و(أزهار الرياض):

هي ملجأٌ للواردين ومورِدٌ لابن السبيل وكلِّ ركب ساري
دارٌ على الإحسانِ شيدت والتقى فجزاؤها الحُسنى وعقبى الدار
هي آثار مولانا الخليفةِ فارس أكرمْ بها في المجد من آثار
لازال منصورَ اللواء مظفَّرًا ماضي العزائم ساميَ المقدار
بنيت على يد عبْدهم وخديم با بهم العليّ محمد بن جدار
في عام أربعةٍ وخمسين انقضت من بعد سبع مئين في الأعصار

وإذْ أخصص الحديث عن هذه الزاوية فلأنها خفيت على معظم المؤرخين المغاربة ولأنها التبست التباسًا مطبِقًا على سائر المستشرقين في تعليقاتهم على ترجمتهم لرحلة ابن بطوطة، التبست عليهم الزاوية المتوكلية التي توجد **خارج فاس** بالمدرسة العنانية التي تقع **داخل مدينة فاس**، وقد بنيتا معًا

(١) المتوكلية نسبة إلى لقب أبي عنان (المتوكل على الله). إسماعيل ابن الأحمر: روضة النسرين في دولة بني مرين...

(٢) السفر، ص ٢١٢ [١/ ٨٤- ٨٥]، والسفر ٤، ص٢٠٢- ٢٠٤ [٤/ ٣٥٢- ٣٥٣].

في التاريخ نفسه تقريبًا[١]...

فكلّ هؤلاء الناشرين ابتداءً من الفرنسيين الأولين: ديفريميري Defremery وسانكينيتي Sanguinetti اللذين قاما بترجمة رحلة ابن بطوطة عام ١٨٥٣– ١٨٥٩م، إلى هاميلتون كيب Gibb، إلى من اقتفى أثر هؤلاء **مشرقًا ومغربًا**، كلهم حسبوا أن **الزاوية المتوكلية** العظمى يقصد بها المدرسة البوعنانية التي ينعتها ابن بطوطة بالمدرسة الكبرى، وقد كان مما زاد في تضليل الناس اختفاء آثار هذه الزاوية موضوع الحديث اختفاءً مطلقًا منذ زمن لم نستطع تحديده إلا حدسًا وتخمينًا...

لقد عرفت فاس في الحِقبة الأخيرة لعصر بني مَرِين أيامًا حزينة أثارت انتباه معظم المؤرخين الذين تناولوا تاريخ دولة بني مَرِين، وخاصة في عهد السلطان أبي سعيد الثالث (٨٠٠– ٨١٧هـ/ ١٣٩٨– ١٤١٤م)، هذا العهد الذي كان بمنزلة الريح السموم التي أتت على المعالم الحضارية والثقافية لبني مرين، وخاصةً في إقليم فاس، وهكذا عصفت الفتن الطاحنة التي سببت الخراب والدمار لمملكة فاس.

وقد أشار الحسن الوزّان (ليون الإفريقي) في عددٍ من مقاطع كتابه

(١) شرع أبو عنان في بناء المدرسة العنانية **داخل المدينة** يوم الاثنين ٢٨رمضان٧٥١هـ /(٢٩ تشرين الثاني) ١٣٥٠ ولم تتم إلا في أواخر شعبان ٧٥٦هـ / إيلول ١٣٥٥ على ما جاء في رخامة تحبيسها بينما شيدت الزاوية المتوكلية عام ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣– ٥٤ على ما يوجد في شعر ابن جُزّي. المقَّري: نفح الطيب ٥٣٢/٥ أزهار الرياض، ١٩٦/٣ – ١٩٧. الاستقصا للناصري: ٢٠٦/٣ . د. التازي: جامع القرويين ٢ص ٣٦٠ التعليق ٢٧.

(وصف إفريقية) إلى آثار هذه الحِقبة. وإذا ما عرفنا أنه كان يعاصر هذه المرحلة تقريبًا، عرفنا مدى أهمية إفادته التي كانت تعزو ذلك لتدخل مملكة غرناطة في الشؤون الداخلية لمملكة المغرب، لقد قال وهو يتحدث عما كان أنشأه السلطان أبو الحسن من معالم حضارية:

وفي أيام الملك أبي سعيد حدث أن كان أحد أعمامه، ويسمى السعيد، كان أسيرًا عند ملك غرناطة، وقد توسل السعيد هذا إلى السلطان أبي سعيد بأن يستجيب لطلبٍ تقدم به ملك غرناطة: (عدم الانصياع إلى أهل جبل طارق في أن ينضموا للإيالة المغربية)، ولما رفض أبو سعيد هذا الطلب عمل ملك غرناطة على تحريك العم السعيد على رأس قوات كبيرة بنفقات حربية باهظة ليحارب ملك فاس ويقضي عليه، وهكذا حاصر السعيد العاصمة فاس بمساعدة بعض الأعراب، ودام الحصار **سبعة أعوام** تم في أثنائها تخريب المنشآت...

وفي معرض حديث الحسن الوزان أيضًا عن بعض المؤسسات الحضارية الموجودة بمدينة فاس وخاصة التي توجد خارج أبواب المدينة، قال:

وكانت هذه المؤسسات غنية جدًّا، إلا أنه في أيام حرب السعيد عندما كان السلطان أبو سعيد الثالث في أشد الحاجة إلى المال أشاروا عليه ببيع إيراداتها وأملاكها، ولما رفض السكان ذلك تقدم أحد وكلاء الملك وأفتاه بأن هذه المؤسسات إنما أسست بفضل الصدقات التي قدمها أسلاف الملك الحالي الذي يوشك أن يفقد مملكته، فيستحسن – والحالة هذه- بيع تلك الأملاك لصد العدو المشترك (السعيد)، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها سهل شراؤها من جديد، وهكذا بيعت تلك الأملاك وتوفي الملك قبل أن يحصل شراء أي

عقار من تلك العقارات التي بيعت، وبقيت تلك المؤسسات فقيرةً محرومة تقريبًا من وسائل العمل[١]...

هذا وبالنظر لمعلومةٍ وقفنا عليها في كتاب أزهار الرياض تأليف **المقري التلمساني** السالف الذكر الذي نعلم أنه تردد على مدينة فاس عدة مرات قبل أن يستقر فيها نحوًا من خمسة عشر عامًا إلى أن غادرها إلى المشرق أواخر رمضان **١٠٢٧**هـ/ **١٦١٨م**، هذا المصدر الجليل أورد نظمًا مما قاله أبو عبد الله ابن جُزَيّ على ما أسلفنا في **الزاوية المتوكلية** موضوع الحديث، مصدّرًا هذا النظم بكلمةٍ هامة جدًّا بالنسبة إلينا حيث قال: «وهو أي النظم مكتوب عليها إلى **قرب هذا التاريخ**[٢]. يا ليت المقري أفصح لنا عن «هذا التاريخ» بالضبط !

وإن هذا «التاريخ» الذي يشير إليه المقّري كان هو التاريخ الذي كان يصادف أيام الصراع المرير بين أبناء السلطان أحمد المنصور الذهبي، ذلك الصراع الذي عرفت فيه فاس على الخصوص المزيد من القلاقل، والمزيد من

(١) الحسن بن محمد الوزان الفاسي: وصف إفريقية ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر – طبعة ثانية، دار الغرب الإسلامي بيروت، الشركة المغربية للناشرين المتحدين ١٩٨٣ ص ٢٠٩– ٢١٠– ٢٢٨.

د. عبد الهادي التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، المجلد ٧ ص١٥. رقم الإيداع القانوني ٢٥/ ١٩٨٦ مطابع فضالة– المحمدية.

(٢) شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني: أزهار الرياض في أخبار عياض، الجزء الثالث طبع صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة ١٩٧٨– ١٩٩٨.

الإهمال لمنشآتها الحضارية التي نذكر في صدرها **الزاوية المتوكلية**، فهل كان المقّري يتحدث عن البقية الباقية من رسوم كانت ماتزال على بعض واجهات الزاوية؟!

مهما يكن فإنه بعد الحروب التي عرفتها العاصمة أيام أبي سعيد، وبعد القلاقل التي عاشتها العاصمة أيضًا في أعقاب وفاة المنصور، يبقى أمامنا أن نرجع إلى سبب آخر ثالث يمكن أن يكون وراء اختفاء هذه المعلمة الكبرى من خريطة فاس، ذلك زلزال ليشبونة ١/ تشرين الثاني/ ١٧٥٥م٢٦ /محرم/ ١١٦٩هـ الذي يجوز بل يحق للمغاربة أن يسموه أيضًا **زلزال المغرب** لاسيما بعد أن ظهرت اليوم الشهادات والمذكرات التي كتبها بعض الذين عاشوا ظروف هذا الزلزال وخاصة بمدينة فاس، وفي صدر هذه المذّكرات ما كتبه الأسير السويدي ماركوس بيرك MARCUS BERG عام ١٧٥٥ علاوةً على الممثلين التجاريين والقناصل الأجانب الذين كانوا يقيمون ببعض المدن المغربية كمكناس وسلا والرباط، وعلاوةً بالطبع على ما أشارت إليه المصادر المغربية إشاراتٍ خفيفة بل وقاصرة[١].

(١) تحدث عن هذا الزلزال محمد بن الطيب القادري في النصف الثاني من كتابه (نشر المثاني ص ٢٦٦ عند الكلام عن العام التاسع من العشرة السابعة – ابن زيدان: الإتحاف ج٤ ص ٤٦٤.

Magali Morsy: le tremblement de terre de ١٧٥٥ d'après des Témoignages d'Epoque, Hesp ١٩٧٥ p.٨٩.

Description de l'esclavage Barbaresque dans L'Empire de Fes et au Maroc, Par Marcus Bery ١٧٥٧ p.٣٠ =

=د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج٩ ص ٢٥٤– ٢٥٥ رقم الإيداع القانوني ٢٥– ١٩٨٦ مطبعة فضالة.

أريد القول إن الفترات العصيبة التي مرت بها فاس وخاصة الزلزال الذي ضرب المدينة، إن ذلك أتى على البقية الباقية من الزاوية المتوكلية. وقد حاولت مع هذا أن أجد للزاوية ذكرًا أو أثرًا في مختلف المظان غير ما قاله الرحالة ابن بطوطة نثرًا وزميله ابن جُزَيّ نظمًا، فلم أظفر بشيء.

لقد كان المصدر الوحيد الذي تحدث عن الزاوية بإسهابٍ في فترة بني مرين هو – لحسن الحظ– ابن الحاج النميري المتوفى بعد عام ٧٧٤هـ/١٣٧٣م في كتابه (فيض العباب) الذي سنورد نصه كاملاً ومصححًا ومعرّفًا بأسمائه الجغرافية وأعلامه الإنسانية، وذلك عن المخطوطة الفريدة التي توجد لهذا الكتاب في الخزانة الحسنية بالرباط[١]. فماذا كان عن **الزاوية المتوكلية** في فيض العباب؟

يذكر ابن الحاج أن أعمال البناء في الزاوية المتوكلية **انتهت** على إثر عودة السلطان من حركته الجميلة الآثار، وكان ابن الحاج يقصد دون شك حركة السلطان أبي عنان الداخلية أي التي قام بها للرباط وسلا في النصف الثاني من عام ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م[٢]. وهنا نعت ابن الحاج الزاوية بأنها:

- شيدت على شاطئ الوادي...
- وأنه قام بقبليها جامع جامع...
- وتقابلها بالجوف قبة صعدت في الجو

(١) تحت رقم ٣٢٦٧ من ورقة ٦٧ إلى ٨٧.

(٢) الناصري: كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج٣ ص٢٠٠– ٢٠١ تحقيق جعفر الناصري وأخيه محمد – دار الكتاب– الدار البيضاء ١٩٥٥.

– تدور بها أربعة براطيل بديعة الاختراع

– وقد امتد من الجامع إلى القبة صهريج بديع الطول والعرض...

– وبشاطئ هذا الصهريج أسدان صنعا من الصفر يخرج الماء من أفواههما..

– وفي كل ركن من أركانها باب يشرع إلى دارٍ بديعة البناء...

– الباب الذي بالجوف يشرع إلى دار الوضوء...

– الديار الثلاث إحداها للإمام والثانية للمؤذن والثالثة للناظر...

– تتصل بالزاوية دار معدة للنازلين الواردين...

– تقابلها دارٌ أخرى معدة للطبخ...

– للزاوية والدارين المتصلين بها باب عظيم من جهة الشرق ناظر إلى الحضرة العلية...

– بمقربة من هذا الباب توجد الصومعة التي تزاحم الكواكب...

– يتصل بالزاوية من جهة الغرب والجوف روضٌ أريض...

– وبغربي الزاوية صهريج عميق، للماء في جنباته لعبٌ وتصفيق

– قامت بإزاء الزاوية سانية بديعة... تزود الفقراء بمائها...

– عُملت على النهر ناعورة لأن السانية قد لا تبالغ في العطية...

كانت هذه الناعورة ساميةً حازت أعظم البهاء، وفيةً ضمنت للروض نجاز الوعود، دولابها معظم عند بني مرين... إذا ذكر له (رأس الماء) أحب

دورانها في الرأس... أنشدت مخاطبةً نواعير المصارة[١]:

وما شرب العشاق إلا بقنتي!

وبعد هذه الإشارات عن الزاوية المتوكلية يذكر ابن الحاج أن السلطان أمر بكتب ظهير (مرسوم) يُعين فيه أبو عنان جرايات القائمين بالوظائف... ويرتب جملةً من الفقراء الصوفية ليقيموا هناك للذكر... موضحين للضيوف[٢] الواردين سبل الائتلاف... وكذلك تعينت الجرايات للخدم المتزوجات ليقوموا بتنظيف تلك الديار وخدمة الزوار وعمل الأطعمة العميمة الإيثار...

ويفيد ابن الحاج أنه هو الذي كتب بخطه تلك الظهائر والمراسيم، وبعد أن يقدم لنا ابن الحاج نموذجًا من الشيوخ الواردين والصلحاء القاصدين للزاوية من الذين قام هو بزيارتهم أواخر عام **ثمانية وخمسين وسبعمئة** من غير أن يستطيع التعرف عليه ولا على شيخه الذي سلك على يديه، يذكر أن هذا الشيخ تشوف لرؤية أمير المؤمنين الذي استدعاه وآنسه[٣].

---

(١) يعني بالمصارة منشأة أخرى لبني مرين تبعد قليلاً عن الزاوية المتوكلية كانت مخصصة لترويض الخيول وتقع شمال المدينة البيضاء حيث تقع اليوم مقبرة سيدي عمارة، وكانت تحتوي على ثلاث نواعير كما يقول ابن الحاج في فيض العباب عند حديثه عن هذه المنشأة...

(٢) هناك طرة في بداية النص المخطوط تذكر أن الزاوية تحمل أيضًا اسم (دار الضيفان).

(٣) لم يكن هذا النموذج كالشيخ ابن عاشر الذي لم يأذن للسلطان أبي عنان في الاجتماع به بسلا، ولله در القائل:

فقل لملوك الأرض تجهد جهدها فذا الملكُ ملكٌ لا يباع ولا يهدى!

الاستقصا، (٣/ ٢٠٠).

ومن المهم أن نعرف – عن طريق ابن الحاج– أن المقدَّم الذي أسندت إليه مشيخة الزاوية المتوكلية وإمامة جامعها كان هو السفير المغربي الذي نَقل إلى الديار المشرقية المصحف العظيم الذي أهداه السلطان أبو الحسن والد أبي عنان إلى **بيت المقدس** بعد أن أتمه بمدينة فاس عام خمسة وأربعين وسبعمئة...

هذا المصحف الذي كان من أروع المصاحف التي يحتضنها اليوم المتحف الإسلامي للمسجد الأقصى، وقد وقفتُ عليه يوم الأربعاء ثاني أيلول١٩٥٩م / ٢٨ صفر/ ١٣٧٩هـ، وكانت جميع أجزائه الثلاثين مكتوبةً على رق الغزال **وبخط العاهل المغربي** الذي – رغم مشاغله ومتاعبه– استطاع أن يكون حاضر البال ليكتب بيده زهاء ثمانين ألف كلمة مما اشتمل عليه القرآن الكريم، الأمر الذي يفسر مدى تعلق المغاربة بالقدس الشريف[١]...

ويذكر ابن الحاج أن الشيخ أبا عبد الله بن أبي مدين لما عين في منصب مقدم الزاوية رأى أن يُشَهّر أمرها في الآفاق، فاستدعى أهلَ فاس إلى الحضور بجامع القرويين الذي غص بالمستجيبين للدعوة فجر يومٍ من أيام الله حيث برز الشيخ العلامة المفتي أبو الحجاج يوسف بن عمر الأنفاسي الذي خلف صدى كبيرًا في كتب التاريخ المغربي، والذي كان السلطان أبو عنان قدمه للإمامة بجامع القرويين سنة خمسين وسبعمئة، قام بإلقاء خطابٍ أفصح فيه بالثناء على أمير

(١) د. عبد الهادي التازي: أوقاف المغاربة في القدس ص ٢٢– ٢٣، رقم الإيداع القانوني ٨١– ١٩٨١/ ١٤٠١هـ– ١٩٨١م، مطبعة فضالة المحمدية– التاريخ الدبلوماسي، ج٧ ص٢١٨، رقم الإيداع القانوني ٢٥، ١٩٨٦– مطبعة فضالة. د. التازي: القدس والخليل في الرحلات المغربية، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

المؤمنين بحضور سائر شيوخ الزوايا الأخرى[١].

ولما طلع حاجب الشمس خرج الحاضرون في موكبٍ عظيمٍ يضم صدور الشرفاء وأعلام الفقهاء رافعين أصواتهم بالأذكار والدعاء...

ولم يفُت ابنَ الحاج أن يسجل «حضور ربات الحجال، المحميات ببيض النصال» على حد تعبيره.

وقد خرج الموكب إلى ضاحية المدينة عن طريق **باب المحروق** الذي، كما نعرف، أخذ اسمه هذا ابتداء من عام ستمئة عندما قام الخليفة الموحدي الناصر بالقضاء على أحد الثوار الذي ادعى أنه المهدي الذي ينصر الله به الإسلام، هناك وعلى أعلى الباب علق رأس الثائر بعد أن أحرق جسده، وكان الباب يحمل اسم باب الشريعة من ذي قبل، وليس صحيحًا أن اسم المحروق أتى بسبب إحراق لسان الدين ابن الخطيب[٢].

وقد أفضى الجمهور إلى الزاوية التي اشتهر ذكرها في الأقطار والأمصار حيث تميز هذا الحفل التدشيني بقصيدةٍ مَدَح الحسناوي فيها السلطان أبا عنان

(١) يعتبر الشيخ يوسف بن عمر من أكبر رجالات جامع القرويين الذين تركوا لهم صدى في التاريخ الفكري للمغرب، وبفاس على الخصوص، ومن الطريف أن نعرف أن السلطان بعث له في أول خطبةٍ خطبها كسوةً سنية... وقال له الرسول: «إن السلطان قصد إلى أن يمتاز أهل الخطط من غيرهم وليعلم الناس بتقديمه لك» توفي يوم ١٣ شعبان ٧٦١– زهرة الآس للجزنائي– طبعة الجزائر ١٩٢٣ص ٥٣ وص ١١٧ ترجمة فرنسية.– الكتاني: سلوة الأنفاس ج ٣، ص ١٥٥– التازي: تاريخ القرويين ج٢، ص ٤٣٨– ٤٩٤.

(٢) الكتاني: سلوة الأنفاس ج٣، ص ٢٠٧.

وذكر محاسن الزاوية... ونعرف من شيوخ الحسناوي أبا العباس أحمد بن موسى البطرني... كما نذكر من تلامذته ابن الأحمر، وقد توفي سنة خمس وتسعين وسبعمئة.

لقد كان ابن الحاج المصدر الأساس الذي تحدث عن هذا الشاعر، ويا ليته كان يجد من الوقت ما يسمح له بتقديم نماذج من إنتاج هذا الشاعر الذي خلت من آثار شعره **سائر المصادر الأدبية** التي اهتمت بشعراء عهد بني مرين على ما علمنا[١].

وقد انتهى هذا الحفل الكبير بتقديم طيافير الطعام الملوكية التي أحضرت وعليها المناديل الساطعة البياض والسباني المرقومة كأنها أزهار الرياض على حد تعبير ابن الحاج، وانفض هذا الجمع عن مشهد تهادت البلاد أخباره... واستتبت أمور الزاوية أحسن استتباب... جزى الله مولانا على ذلكم جزاء من أتبع الحسنى بأختها...

ذلكم ملخص المعلومات التي قدمها ابن بطوطة وابن جُزيّ وابن الحاج والمقَّري عن المؤسسة الحضارية الكبرى، وإن من تتمة الحديث عن هذه الزاوية أن أؤكد أنها هي المقصودة عند المؤرخين لما ذكروا أن المنصور السعدي استقبل

(١) التنبكتي: نيل الابتهاج ص ٤٧ نقلاً عن الشيخ إسماعيل بن الأحمر في فهرسته – ابن القاضي: درة الحجال ١/ ١٨٣– سلوة الأنفاس ٣/ ٢٥٤– أعلام المغرب العربية ١/ ١٣٥.

ابن الحاج النميري: فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد د. محمد ابن شقرون، دار الغرب الإسلامي لبنان ١٩٩٠، ص: ٢٠٦– ٢١٨.

بظاهرها السفارة البرتغالية الإسبانية التي وردت على بلاط فاس تلتمس جثة العاهل البرتغالي دون سباستيان صريع وقعة وادي المخازن، وهي ذاتها المقصودة عندما تحدثوا عن تصفية الموريسكي سعيد الدُّغالي، وإنما تجنبوا نعتها بالمتوكلية تجنبًا للتذكير باسم «المتوكل» الذي كان ينافس عبد الملك وأخاه المنصور على الحكم، ولو أنه ليس هو المتوكل الذي تنسب إليه الزاوية والذي هو، كما قلنا منذ البداية، السلطان أبو عنان!

وهنا بظاهر الزاوية استقبل المجاهدون برئاسة النقسيس الذين أتوا بعددٍ من الأسرى الذين أخذوهم من سبتة. وقد تقت وأنا أهتم بموقع هذه الزاوية إلى أنْ أحقق هدفين اثنين:

أولاً: إعداد تصميم للزاوية المذكورة من خلال الوصف الذي قدمه إلينا ابن الحاج، وفي هذا الصدد قمت بالاتصال بالمسؤولين في وزارة السكنى والتعمير، وقدمت لهم النص الأدبي لابن الحاج محاولاً أن يصلوا إلى وضع تصميم للمكان، ولم يكن في الاستطاعة إلا أن أكتفي بالتصميم التقريبي الذي نشرتُه في المجلد الرابع من تحقيقي للرحلة.

ثانيًا: وكنت أتوق مع هذا إلى تتبع منعرجات وادي الجوهر خطوةً خطوةً بحثًا عن طلل أو حتى حجرة! فلقد كنت مقتنعًا بأن ذلك الصرح الحضاري الكبير لا يمكن – بعدما عرفنا عنه– أن لا يخلف أثرًا !

وقد شجعني على الأمل ما وقفت عليه أثناء تحرياتي الأولى من خلال بعض الخرائط التي وضعتها المصالح الفرنسية لفاس أثناء العشرينيات، حيث وقفتُ في يسار الخريطة على «شبه تصميم» كتب بإزائه «دار الضيافة»، وكان غير بعيد عن ضفاف وادي فاس.

ومن هنا كتبت للسيد وزير الشؤون الثقافية بتاريخ ٨/ ١/ ١٩٩٦ أطلب المساعدة، مقدمًا النصوص التي أتوفر عليها بما فيها الخريطة، آملاً في الحصول على ما ينفعني، ثم حاولت الاجتماع بالمسؤول المباشر عن التراث بيد أن مشاغله لم تسمح...! وهنا قررتُ الرحلة لفاس للوقوف بنفسي في عين المكان... وظللت أتردد على البقعة كلما سنحت الفرصة لزيارة فاس ولو ليومٍ واحد، وقد كنت أحيانًا أتجاوز المساحة المرشحة للبحث، آملاً في العثور على عنصر من العناصر التي من شأنها أن تشجعني على مواصلة البحث. لقد كنت أعرف المكان منذ صباي مع والدي أو رفاقي عندما كنا نتردد للنزهة، أو أيام طلبي عندما كنا نحضر حفلاتِ سلطان الطلبة...

وقد أخذت أشعر أخيرًا بأنني أقترب من الوصول إلى بعض الحقيقة عندما وقفت على أطرافٍ **لكتلة صخرية** كانت غريبة عن هذه المروج الفسيحة التي تقع على مقربةٍ من الوادي...

وقررت الالتجاء إلى والي المدينة الذي توجهت إليه بخطاب يحمل تاريخ ٥/ ٤/ ١٩٩٨ أطلعه على هذا العزم، وأرجو إليه أن يمدني بخبراء ومصورين من الولاية للوقوف على عين المكان لأخذ الصور اللازمة تمهيدًا لوضع تشخيص للزاوية من جديد...

وهكذا تحققت الرغبة يوم الأربعاء تاسع المحرم ١٤١٩هـ الموافق ٦/ ٥/ ١٩٩٨م أثناء اجتماعنا في دورة الأكاديمية حيث كانت لي جلسةُ عمل تمهيدية مفيدة مع (وكالة التخفيض من الكثافة وإنقاذ مدينة فاس)، وحضر بعض هذه الجلسة مندوب عن السيد الوالي المتغيب آنذاك بالرباط، كما حضرها مدير الوكالة ومساعدوه الأقربون.

وقد قصدنا عين المكان بعد تمعن في ما ورد في النصوص التاريخية التي قدمتُها، وهكذا زرنا ضفاف وادي فاس التي يسميها التأليف المعاصر بالغدير، وتحققنا من **موقعين اثنين** بقيا من بناء الزاوية وهما من حيث المتانة وقوة البناء على نحو ما قرأناه.

وقد قامت أطرُ الوكالة المذكورة مشكورةً بوضع رفوعات وصور فوتوغرافية نتيجةً لهذه التحريات الميدانية سواء للموقع (أ) أو الموقع (ب)، وقد تجلى أن الموقع (ب) يحتوي على أثر للصهريج، الذي وردت الإشارة إليه في النص التاريخي الموجود بين أيدينا ونحن نقوم بهذا المسح.

وإلى جانب هذه المعلومات قامت **الوكالة بتصوير** الخطوات التي سلكناها من أجل تحقيق هذا الأمل الذي كان يراودني منذ أخذت في تحقيق رحلة ابن بطوطة أثناء السبعينيات والثمانينيات...

وبعد هذه الجولة عُدنا للاجتماع مرة أخرى **بالوكالة** من أجل استخلاص نتائج تلك التحريات بصفةٍ نهائيةٍ، الأمر الذي قامت الوكالة بتسجيله ضمن محضر موثق بالرسوم والصور.

وبالنظر إلى أهمية هذا الاكتشاف رفعتُ بتاريخ ١٢/ ٥/ ١٩٩٨ إلى جلالة الملك الحسن الثاني مذكرةً خطية حول موقع الزاوية المذكورة كأعظم معلمةٍ حضاريةٍ عرفها تاريخ المغرب في العصر الوسيط، راجيًا من جلالته — وهو حامي التراث — أن يرعى هذا المكان تمهيدًا لبعث الحياة فيه من جديد.

وقد أُشعرت بأن تعليماته صدرت إلى وزير الشؤون الثقافية الذي تفضل **ودعاني فعلاً** لجلسة عمل صباح الجمعة ١٩/ ٦/ ١٩٩٨ حضرها السادة المشرفون على الآثار حيث قدمتُ تقريرًا مكتوبًا عن الزاوية مصحوبًا بملف

مصور عن التحريات الميدانية التي قامت بها الوكالة السالفة الذكر...

وقد اهتم السيد الوزير بالموضوع وأعطى تعليماته بالقيام بالرحلة إلى عين المكان يوم الجمعة ٢٦حزيران ١٩٩٨، وبمناسبة الندوة الختامية للسنة الدولية لابن بطوطة بقاعة المركب الثقافي، سيدي بليوط بمدينة الدار البيضاء يوم ٩- ١٠ تشرين الثاني ١٩٩٨ أعلنتُ عن هذا الاكتشاف الأمر الذي رددته أجهزة الإعلام المغربية[١].

وقد قدمت أمام أعضاء أكاديمية المملكة المغربية يوم الخميس ٢٨ شعبان ١٤١٩/ ١٧ كانون الأول ١٩٩٨ حديثًا عن الموضوع بعنوان: (اكتشاف موقع الزاوية المتوكلية بظاهر مدينة فاس...) وتتابع إلى الآن التحضيرات للإعلان رسميًا عن هذه المعلمة الأثرية العظمى...

(١) العلم ١٢ تشرين الثاني ١٩٩٨- الاتحاد الاشتراكي التاريخ نفسه – الأنباء- الأحداث المغربية.